

السياسة الاستعمارية تجاه القبائل والعائلات المتنفذة في منطقة الزيبان
(1844-1830)

د/لخضر بن بوزيد

جامعة محمد خيضر-بسكرة-

الملخص:

تعرضت منطقة الزيبان على غرار معظم المناطق في الجزائر إلى اضطرابات وانعدام استقرار في الفترة الأخيرة من عهد الدايات، ويعود سبب الاضطرابات إلى الصراع حول منصب شيخ العرب بين عائلة بوعكاز الذي مثلها فرحات بن سعيد وعائلة بن قانة التي مثلها بوعزيز بن قانة. وكان أحمد باي قد انتزع من فرحات بن سعيد منصب شيخ العرب وأعطاه لبن قانة مما أدى إلى نشوب الحرب بينهما، وحاول كل طرف البحث عن حلفاء فبينما كان أحمد باي حليفاً لبن قانة حاول فرحات بن سعيد التفاوض مع الفرنسيين، لكنه في الأخير انحاز إلى الأمير عبد القادر الذي عينه خليفة له على بسكرة، وبالطبع استغل الفرنسيون هذا الصراع للتمدد والاستيلاء على المنطقة حيث احتلوا بسكرة سنة 1844.

الكلمات المفتاحية: الزيبان، بوعكاز، بن قانة، الأمير عبد القادر، أحمد باي.

Abstract:

La région de Zayban, comme la plupart des régions algériennes, a connu des troubles et de l'instabilité dans la dernière période de l'ère Dayat, en raison du conflit sur le poste de Cheikh Al Arab entre la famille Bouakaz représentée par Farhat Ben Said et la famille Ben Gana représentée par Bouaziz Bengana.

Ahmed Bay a pris le poste de Cheikh Al Arab de Farhat bin Said et l'a donné à Ben Gana, ce qui a conduit à l'éclatement de la guerre entre eux, Chacun d'eux cherchait des alliés. tandis qu' Ahmed Bay était un allié de Ben Gana, Farahat bin Said a essayé de contacter les

Français. Pui il a rejointre l'émir Abdelkader qui le désigna comme son khalifa à Biskra .

Les Français ont exploité cette conflit pour contrôler la région, Ils ont réussi à occuper Biskra en 1844.

مدخل:

تتمتع منطقة الزيبان⁽¹⁾ بمكانة هامة في بايلك الشرق فهي تحتوى على ثروات فلاحية كبيرة، وقد كانت المصدر الرئيسي للثروة في منطقة الجنوب القسنطيني، لذلك أعطى بايات قسنطينة أهمية كبيرة لها وحرصوا على استقرارها، وكانوا يلحثون إلى عقد مصاهرات مع زعمائها والعائلات الكبيرة فيها، خاصة عائلة بوعكاز الذواودية التي كانت تتمتع بمكانة كبيرة في المنطقة⁽²⁾، وقد ورثت تلك المكانة منذ العهد الحفصي لذلك سعى لإرضائها في بادئ الأمر، لكنهم مع ذلك كانوا يحاولون تقليص مكانتها في المنطقة خوفا على سلطتهم⁽³⁾، وقد نجح "أحمد القلي" وهو جد أحمد باي في استحداث عائلة منافسة لها في المنطقة، هي عائلة بن قانة التي استحوذت على مشيخة العرب.

وقد كان قرار إعطاء مشيخة العرب لعائلة بن قانة⁽⁴⁾ خطأ كبيراً حيث أدى إلى وقوع المنطقة

(1) تحل منطقة الزيبان موقع جغرافي متميز حيث تعتبر بوابة الصحراء من الناحية الشرقية، وتعتبر همزة وصل بين الشمال والجنوب، وهي محبودة بسلسلة جبال الزيبان والأوراس شمالا وواد حدي وشط ملغيع جنوبا، وتحدها من الغرب هضبة أولاد جلال أما شرقا فنجد واد العرب وحقنة سيدي ناحي وحدود الأوراس، وهي تمتد على مسافة 200 كم من الشرق إلى الغرب وما بين 40 و70 كم من الشمال إلى الجنوب.

(2) يمتلك شيوخ العرب بالزاب قوة كبيرة، حيث يقع تحت سلطتهم اثنا عشر قبيلة كبيرة مما يعني أن لهم قدرة كبيرة على تجنيد الجيوش، وربما ما جعل البايات يحشون سطوتهم ويسعون لاسترضائهم، ينظر: محمد الصالح بن العتري، المصدر السابق، ص 19.

(3) قام مراد باي حاكم قسنطينة باستدعاء محمد بن الصخري بوعكاز وكيار قومه وأقدم على قتلهم جميعا في 17 جوان 1637 لانتقامه إياهم بالتعاون مع العدو، فقاد ابن القتيل بثورة كبيرة شملت كل الأنحاء وحاصر قسنطينة وقتل عدد كبير من الناس، وهُزم الباي شر هزيمة رغم الإمدادات التي كانت تصله من العاصمة، وفي العام الموالي تعرض الباي لهزيمة أخرى، واضطرت أحوال الإقليم كله نتيجة لهذا التمرد، ينظر: محمد الصالح بن العتري، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها، عالم للمعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 36-37.

(4) يدعي أهل بن قانة النسب الشريف على غرار الكثير من عائلات المرابطين وشيوخ الزوايا، لكن هناك من ينسبهم إلى أسرة أندلسية هاجرت إلى

بجاية بعد سقوط الأندلس، ينظر: L. C. FERAUD , Histoire des Sultans de Touggourt et du Sud Algérien , Notes historiques sur la province de Constantine, Les Ben-Djellab, Sultans de Touggourt, Revue Africaine 1878 – 1886 (bulletin de la société historique algérienne) , Impression: A. Jourdan, Alger, 1878-1886, p 283-313

وقد نشأت علاقة مصاهرة بين عائلة بن قانة وبين أحمد القلي جد أحمد باي وكان آنذاك حاكما على عنابة وهو قائد من أصول تركية، وكذلك فعل ابنه محمد الشريف الذي تزوج من شرفة بنت بن قانة، وأنجبت له أحمد باي آخر بايات قسنطينة، ينظر: الشارح عبد الله بن محمد بن علي حشداق: سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول المطبوعة التونسية، تونس، 1929، ص150، خير الدين محمد: مذكرات الشيخ محمد خير الدين، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ج1، ص 41.

ضحية حروب متواصلة استمرت حتى مجيء المستعمر⁽⁵⁾، والذي استغل هذه الظروف ولعب بدوره على حبل الصراع بين العائلتين من اجل التوغل في المنطقة والقضاء على مقاومة احمد باي وخلفاء الأمير عبد القادر.

ومن هذا المنطق فإننا نسعى من خلال هذه الورقة للتعرف على الأساليب التي اتبعها الفرنسيون تجاه العائلات الكبرى في منطقة الزيبان؟ وما هو دورهم في الصراع بين العائلتين؟
حالة منطقة الزيبان بين 1830 -1844:

قبل الاحتلال كانت منطقة الزيبان تتبع بايلك الشرق، وكان لبايات قسنطينة نفوذ على في منطقة واسعة تمتد حتى تونس، بل كان لهم نفوذ حتى على بايات تونس، أما منطقة الزيبان فقد كانت تدخل ضمن نفوذ "شيخ العرب"، وهو نظام استحدثه العثمانيين لسيط نفوهم في المنطقة حيث كان يعتمدون على شيوخ العرب في بسط نفوذهم وجمع الضرائب⁽⁶⁾، كما كانوا يعتمدون على مجموعة من القبائل تعرف بقبائل المخزن.

وقد بدأ هذا النظام منذ عهد خير الدين حيث كانت السلطة العثمانية تعين مشايخ الصحراء من القبائل الكبيرة، ويقوم الباي بتسليم زمام المشيخة إلى شيخ العرب⁽⁷⁾، بتقديم معظما مزينا بخيوط ذهبية، ويضع تحت تصرفه واحد عشرين من الجنود الأتراك وأعلامهم⁽⁸⁾، وكانت عائلة بوعكاز تحتكر هذا المنصب منذ بداية العهد العثماني، وتنتمي هذه العائلة إلى الذواودة وهي قبيلة عريقة تنحدر من قبيلة رياح وهي من القبائل الكبيرة التي دخلت بلاد المغرب مع بني هلال، وكانت تسيطر على منطقة واسعة من الصحراء⁽⁹⁾.

(5) في الواقع فان البلاد كلها لم تكن مستقرة وليست منطقة الزيبان لوحدها، حيث يذكر المؤرخ ناصر الدين سعيدوني أن استقرار الحكم في الجزائر قد انتهى بموت محمد عثمان باشا سنة 1791، كما انتهى عهد البايات الذين نجحوا في إقرار السلم والأمان في الإقليم، فدخلت البلاد بذلك في مرحلة من الاضطراب إلى غاية بداية الاستعمار، ينظر: ناصر الدين سعيدوني: عصر الأمير عبد القادر، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، 2000، ص 106.

(6) محمد الصالح بن العتري: المصدر السابق، ص 19.

(7) وهو زعيم عرب الصحراء الرجل كان يحكم جميع قبائل الأوراس من بلزمة حتى منطقة سيدي ناجي، ويمتد نفوذه إلى وادي سوف، وحدود الصحراء الكبرى إلى غاية ورقلة، وقد توارث هذا المنصب أبناء أسرة بوعكاز الذواودة، وذلك طوال فترة الحكم العثماني قبل أن تنافسها عليه أسرة بن قانة أحوال الحاج احمد آخر بايات قسنطينة، إلا أن نفوذ أسرة بوعكاز ضل أوسع من نفوذ أسرة بن قانة، ينظر: جميلة معاشي: الأسر المحلية الحاكمة في بالك الشرق من القرن 10 الهجري (16 م) حتى القرن 13 الهجري (19م)، ديوان المطبوعات الجامعية، 2015، ص 159.

(8) حمدان حوجة: المرأة، تحقيق محمد العربي الزيري، سلسلة التراث، الجزائر، 1995، ص 25.

(9) محمد مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القدم والحديث، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 691.

وقد ارتبطت قبيلة الذواودة في البداية بالحفصيين حيث احتفظت بنفوذ كبير في الصحراء، وعند مجيء العثمانيين دخل هؤلاء في خدمتهم فحفظوا لهم مكائهم وأقروهم على زعامة الصحراء، حيث عين خير الدين بربروس شيخهم المدعو "الصخري بن يعقوب بن علي بوعكاز" شيخاً للعرب، وقد كان نفوذ هذا الشيخ وهو آخر زعماء هذه الأسرة في العهد الحفصي في سنة 1481م يشمل معظم المناطق الصحراوية ويصل حتى سهول قسنطينة، واستمر الوضع كذلك في العهد العثماني حتى أصبح ثلث بايلك الشرق خاضع لنفوذ الذواودة (10).

وقد ضلت مشيخة العرب متوارثة فيهم فبعد أن تتفق القبيلة على اختيار الشيخ يخلع عليه الباي لباساً شرفياً مميّزاً يدعى "القفتان" ويتم ذلك باحتفال رسمي، وبعد وفاة الشيخ الصخري بن عيسى بن يعقوب سنة 1541 انتقل المنصب إلى علي بوعكاز بن الصخري، وهو أول من تشرف بالمشيخة على منطقة الزاب، وكان ذلك في فترة الانتقال من الحكم الحفصي إلى الحكم التركي وقد لقب بوعكاز لحملة الدائم للعصا (11).

وقد آلت المشيخة بعد الحاج علي بوعكاز إلى أولاده من بعده إلى أن وصلت إلى الشيخ أحمد بن محمد الصخري الذي توفي سنة 1790، بعدها بقي هذا المنصب شاغراً لعجز كبار شيوخ العائلة عن ترشيح أحدهم إلى أن تولى فرحات بن سعيد ثم ابنه علي باي (12).

ورغم أن عائلة بوعكاز كانت تتمتع بنفوذ كبير (13)، إلا أنه في الفترة الأخيرة بدأت تفقد مكانتها بظهور عائلة بن قانة، وقد بدأت علاقة عائلة بن قانة بالعثمانيين في عهد باي قسنطينة أحمد القلي الذي تزوج امرأة من هذه العائلة، وبسبب هذه المصاهرة تم تعيين محمد الحاج بن قانة في منصب شيخ للعرب سنة 1762، وعندما استحوذ حفيده أحمد باي على الحكم أقر محمد الحاج بن قانة على مشيخة العرب وعند وفاته عين بوعزيز بن قانة خلفاً له، وهو ما أثار حفيظة فرحات بن سعيد الذي

(10) جميلة معاشي: المرجع السابق، ص 159.

(11) خير الدين محمد: المرجع السابق، ص 56-60.

(12) محمد الطاهر التليلي: "فذلكة تاريخية عن منطقة سوف بالجزائر، تحقيق أبو القاسم سعد الله، مجلة العرب، ج 11، ع 37، المملكة العربية السعودية 2002 م، ص 546.

(13) وصل نفوذ هذه الأسرة إلى مجانة التي تعتبر عاصمة أولاد مفران، ينظر: جميلة معاشي، المرجع السابق، ص 161.

ألت إليه زعامة قومه ورأى نفسه أحق بمنصب شيخ العرب الذي كانت عائلة تتوارثه منذ أجيال⁽¹⁴⁾، وبدأ في النضال لاستعادة ملك أجداده حيث انتقل إلى أولاد نايل طالبا النصرة.

ويبدو أن بايات قسنطينة كان ضالعين في إذكاء العداوات والحروب بين قبائل منطقة الزيبان، فإذا كان أحمد القلي قد عين محمد الحاج بن قانة في منصب مشيخة للعرب سنة 1762 بعد أن انتزعها من الذواودة فإن خليفته إبراهيم باي الذي تولى سنة 1827، قد أعادها إليهم وعين فرحات بن سعيّد شيخا للعرب لكن ذلك لم يستمر طويلا، فبعد مدة قصيرة تم عزل إبراهيم باي من طرف الداوي حسين وعُين مكانه أحمد باي الذي أعاد بدوره المنصب إلى عائلة بن قانة، فشن عندئذ فرحات بن سعيّد⁽¹⁵⁾ حرباً على أحمد باي من أجل استرجاع منصبه وتحالف مع الباي المعزول⁽¹⁶⁾.

الصراع بين العائلتين:

ظهر الصراع بين العائلتين في عهد أحمد باي فقد رفضت عائلة بوعكاز قرار نزع المشيخة منها وإعطائها لعائلة بن قانة، وسعت للاستيلاء على منطقة الزيبان بالاستعانة بالقبائل الموالية لها⁽¹⁷⁾، وفي ذلك الوقت كان فرحات بن سعيّد يتزعم قومه، ويبدو أنه استغل فترة انتقال معظم قوات أحمد باي إلى العاصمة للدفاع عنها ضد الفرنسيين فسيطر على المنطقة، وانشغل بعد ذلك أحمد باي في مواجهة الاحتلال الذي كان يتقدم باتجاه قسنطينة، أما بوعزيز بن قانة فقد كان يتطلع لإخضاع منطقة الزيبان كلها واستئصال شأفة خصمه الذواودي.

(14) هوراي مختار: سياسة الإدارة الاستعمارية الفرنسية اتجاه العائلات المنتفذة في الجنوب القسنطيني، أطروحة ماجستير، في تاريخ الأوراس الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2009، ص 25-27.

(15) كان فرحات بن أحمد بن محمد السخري المدعو فرحات بن سعيّد أشهر فرسان قبائل الذواودة التي كانت مواطنها في نواحي أولاد جلال وكان له نفوذ قوي في الصحراء، ولد سنة 1786 وتقلد مشيخة العرب سنة 1821م في واحة سيدي خالد، وكان فرحات بن سعيّد قد أمضى سنوات عديدة في واد ريغ حيث كان يساعد سلطان تقرت ابن جلاب الحازن سنة 1814م على الاستيلاء على مدينة تقرت، ثم دخل بعد ذلك في صراع دائم مع باي قسنطينة الحاج أحمد و"شيخ العرب" محمد بن الحاج بن قانة، وجرت بينهم عدة معارك من بينها معركة البشيرة في تلاغمة سنة 1830 ومعركة الهزيمة سنة 1831 ومعركة مراح الجزية بالقرب من مدينة بسكرة و معركة الضحيرة سنة 1837.

(16) Ernest Mercier: Histoire de Constantine, J. Marle et F. Biron, 1903 - Constantine (Algeria), p357

(17) كانت عائلة بوعكاز تملك جيش قويا بلغ تعداده حوالي 1000 فارس، ينظر: جميلة معاشي: المرجع السابق، ص 163.

وبعد سقوط قسنطينة جاءته الفرصة حيث أقنع أحمد باي بالتوجه إلى الصحراء لقتال فرحات بن سعيّد، وقد كان أحمد باي ينوي محاولة استعادة قسنطينة، إلا أنه رضخ لرأي بن قانة الذي أقنعه بالاستيلاء على منطقة الزيبان واتخاذها قاعدة لاستعادة قسنطينة⁽¹⁸⁾.

ووفق ذلك توجه أحمد باي إلى بسكرة مارا بالقطرّة ومنها إلى الأوراس، وعند حلوله ببلدة لوطاية علم بالتحالف الذي أبرمه فرحات بن سعيّد مع أولاد عبد النور والحضنة، فتوجه من لوطاية إلى طولقة، أين عسكر بالقرب من زاوية سيدي رحال بين واحة فوغالة وواحة العامري، وبدأ يعد نفسه لشن الهجوم على فرحات بن سعيّد، والتقى الطرفان في منطقة "الصحيرة" حيث انهزم فرحات بن سعيّد.

وبعد هذه الهزيمة حاول فرحات بن سعيّد الاتصال بالفرنسيين من أجل الحصول على مساعدتهم⁽¹⁹⁾، لكنه لم يحصل على شيء وأكثر من ذلك قرر الفرنسيون تعيين بن عيسى خليفة أحمد باي قائد على المنطقة، توجه بعد ذلك فرحات بن سعيّد إلى الأمير عبد القادر طالبا الدعم وأوفد إليه الحسن بن عزوز كاتبه الخاص، لكن خاب أمله مرة أخرى إذ بيدوا أن الحسن بن عزوز قد طمع بالمنصب لنفسه حيث تقرب من الخليفة البركاني الذي كان عاملا للأمير على بايلك التيطري ونجح في الحصول على ثقة الأمير حيث عينه خليفة على الزيبان سنة 1838⁽²⁰⁾.

(18) يذكر أحمد باي في مذكراته أن فرحات بن سعيّد هو سبب تغييره لمشاريعه، في إشارة إلى توجهه نحو الصحراء بدل من محاولة استرجاع قسنطينة، ولكنه أقر بأنه تعرض للهدية من طرف صهره بوعزيز بن قانة الذي كان يريد الاستيلاء على أمواله، حيث أنه بعد خسارته لقسنطينة أراد التوجه نحو الشمال لقطع طريق الإمداد على الفرنسيين مما قد يحقق له النصر في النهاية، لكن بن قانة نصحه بالتوجه للصحراء لوضع عائلاتهم هناك ثم التوجه للشمال، وكان قصده افكاك الزيبان من سلطة فرحات بن سعيّد خصمه اللدود، وحتى يقنع احمد باي بذلك قال له بأن الفرنسيين لن يتقدموا أكثر، لكن فرحات بن سعيّد يرحف باتجاههم فيجب أن نبادره ثم نوحّد قوانا ونهاجم الفرنسيين، ولم يكن أمام احمد باي إلا القبول لأنه فقد مقره وأصبح تحت رحمة بن قانة، ينظر: محمد العربي الزبيري، مذكرات احمد باي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981، ص77.

(19) يذكر بيليسبي أن فرحات بن سعيّد راسل الجنرال "دي روفيجو" باسم أهل قسنطينة يطلب منه التوغل في المنطقة ومساعدته على استعادة ملكه، ينظر:

Edmond Pellissier de Reynaud, Annales Algériennes, Volume 1, Editions Slatkine, paris , 2013, p 380-381

(20) ومن الممكن أن فرحات بن سعيّد لم يطلب من الفرنسيين ذلك، فقد عرف عنه أنه كان شهما وشجاعا فهذا ما وصفه به خصمه أحمد باي، حيث يقول عنه: "إنه رجل بارود وصاحب ذراع، ولقد حاربني مدة سبع سنوات، فكان في المعركة يقابل مائة وحده ويعتبر بوعزيز إلى جانبه امرأة"، ينظر: محمد العربي الزبيري، مذكرات احمد باي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981، ص78، وهو ما يعني أن فكرة استنحاده بالفرنسيين قد لا تكون صحيحة، وربما كانت مكيدة للقضاء على هذا الرجل وقد يكون الأمير عبد القادر قد تبين ذلك عندما أطلق سراحه.

ورجع بن عزوز إلى الزيبان رفقة الخليفة البركاني، وحضي هذا الأخير باستقبال خاص من قبل فرحات بن السعيد الذي كان ينتظر توليته خليفة على الزاب، ولكن البركاني جاء بقرار تعين الحسن بن عزوز⁽²¹⁾، كما منحه قوة عسكرية قوامها 700 جندي و1200 فارس وعدد من الأسلحة والذخيرة، ودخل بسكرة وحرص على طرد الحاج أحمد باي وأولاد بن قانة الذين فروا إلى الشمال.

ولا نعلم إذا ما قام فرحات بن السعيد بمراسلة الفرنسيين مرة أخرى أو أن الحسن بن عزوز قد أوغر صدر الأمير عبد القادر على فرحات بن سعيّد وربما فعل ذلك بن قانة، ومهما يكن من أمر فعندما وصلت الرسالة إلى الأمير عبد القادر التي تؤكد اتصال فرحات بن سعيّد بالفرنسيين، فاحتال البركاني على فرحات بن سعيّد فجلبه إلى المدية، ثم اعتقله في تاكدمت بتيارت بأمر من الأمير مدة من الزمن⁽²²⁾.

وبعد أن تلاشت آمال أحمد باي في استرجاع قسنطينة قرر أولاد بن قانة الانفصال عنه، فقام بوعزيز بن قانة بمراسلة الجنرال قالبوا (Galbois) في قسنطينة، طالبا الأمان ومتعهدا بطرد الحسن بن عزوز وتوسيع نفوذ فرنسا إلى أعماق الصحراء، مقابل تعيينه شيخاً للعرب، وبالفعل صدر قرار تعيين بن قانة في يوم 14 جانفي 1839.

وما لبثت أن اندلعت الحروب بين بن قانة المتعاون مع الفرنسيين والحسن بن عزوز خليفة الأمير، وطلب بن قانة العون من فرنسا لكنه لم يحصل على شيء ومع ذلك استطاع أن يلحق الهزيمة بقوات بن عزوز في 24 مارس 1840، وأعتبر المارشال فالي ذلك انتصارا لفرنسا في الصحراء الجزائرية. ونتيجة لهذه الهزيمة وقلة كفاءة الحسن بن عزوز قام الأمير عبد القادر بعزله وعين مكانه فرحات بن سعيّد بعد أن أطلق سراحه، فتعهد هذا الأخير بالولاء والطاعة، وتمكن من تشديد الخناق

(21) ولد الشيخ الحسن بن عزوز بقرية البرج وأخذ تعليمه الأول زاوية أبيه، وقد عرف عنه أنه كان شجاعا مقداما منذ صغره فقد أظهر في حروبه من الشجاعة ما جعل الضابط "سيوركا" يقول عنه: " إن له صوتا أشبه زئير الأسد وأنه كان فارسا مقداما"، وقد عينه الأمير عبد القادر خليفة على مقاطعة الزاب وذلك سنة 1839م، فشرع الحسن بن عزوز في أداء مهمته بحزم نشاط فقام بإنشاء جيش قوي واتصل بالأعراس لجمع الرجال، اضطر سنة 1840م إلى الانسحاب إلى المسيلة التي كان بها" الخريزي "ممثل الأمير عبد القادر وأخوه، و بقي الحسن يقود المقاومة رغم الظروف القاسية التي كان يواجهها، ألقى عليه القبض من طرف أحمد المقراني الذي سلمه إلى الفرنسيين فتم نفيه إلى جزيرة" سانت مارغيت" سنة 1842 م مع علي بن عيسى، وأحمد بن الحملاوي، فبقي في الجزيرة المذكورة 26 شهرا ثم نقل على سجن بعناية حيث توفي سنة 1847، ينظر: علي الرضا الحسيني، زاوية علي بن عمر طولقة، دار الحسيني للطباعة، الجزائر، 2002، ص121

(22) جمال قنان: دراسة في المقاومة الاستعمارية، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والتوزيع، الجزائر، 1988، ص57-58.

على القبائل الموالية لابن قانة، لكن فرحات بن سعيد قتل غيلة على يد البوازيد⁽²³⁾، الأمر الذي أثلج صدر بن قانة فسارع إلى إرسال البشرى إلى الفرنسيين⁽²⁴⁾.

وبعد الجريمة التي أودت بحياة فرحات بن سعيد عين الأمير عبد القادر أحمد بن الحاج المعروف بمحمد الصغير الذي كان قائد مدينة سيدي عقبة خليفة له على الزيبان، فاستغل هذا الأخير فرصة هجرة بن قانة إلى الشمال سنة 1842 (للبحث عن مناطق الرعي)، فاستولى على المنطقة.

وفي ماي سنة 1843 قام بن قانة بتجهيز قواته ضخمة وبمساعدة بعض الكتائب الفرنسية توجه لمحاصرة محمد الصغير لكن هذا الأخير استطاع الصمود والانتصار، خاصة بعد أن انظم إليه بن شنوف الذي كان متحالف مع بن قانة، وبعد ذلك قاد محمد الصغير بالحاج رجالة نحو بسكرة، فأرسل بن قانة إلى الفرنسيين طالبا العون أمام قوة الثوار، وهنا جهز الدوق "دومال" حملة كبيرة للاستيلاء على منطقة الزيبان لافتكاكها من سيطرة كل من قوات الأمير أو قوات أحمد باي الذي انسحب إلى أولاد سلطان بعد فشله في استرجاع قسنطينة في 1841 بعد معركة واد الطاقة.

دور فرنسا في الصراع بين بن قانة وبوعكاز:

لا تختلف سياسة فرنسا في الزيبان عن سياستها في باقي أنحاء الجزائر، فقد سعت في البداية لتجنيد كتائب من الجزائريين المتعاونين معها، فالجنرال "كلوزيل" في سبتمبر 1830 أدرك فعالية الجندين الجزائريين، فأنشأ كتيبتين منفصلتين للمشاة كل كتيبة تضم 06 سرايا تضم في مجموعها 397 بين ضابط وجنود وكان ذلك بقرار مؤرخ في 01 أكتوبر 1830، وتم إسناد قيادة الكتيبتين إلى كل من النقيب موميل Maumel ودوفيفي، كما استحدثت فيالق من الزواف والصبانحية وهم من الجنود الأهالي، ثم

(23) لما مات فرحات بن السعيد أثر هذا الحدث في نفوس الكثير من الشعراء، حيث رثاه الكثير من الشعراء، ومن ذلك نذكر:

يا فارس إلي جيت تسيير	رد الجواب عني عاود الأخبار
عرف الجواد غطي الديبر	رد الجواب عني يا راعي الصبار
كيفا مات حرمة أهل بن علي	فرحات الدواي حرمة جـار

ينظر: إبراهيم مياسي: الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1834-1934، دار هومة للنشر، الجزائر، 2005، ص 40.

(24) أرسل بوعزيز بن قانة رسالة في 20 نوفمبر 1842 إلى الحاكم العام "فالي" بواسطة حاكم قسنطينة يخبره فيها ما يلي: " يسرني أن أعلمكم أن فرحات بن السعيد خليفة الأمير عبد القادر بالصحراء قد قتل في معركة نشبت بينه وبين عرش البوازيد وقعت غربي الصحراء، واستطاع شيخ العرب بوعزيز بن قانة أن يأخذ خاتمه وسيفه وأرسلهما إلي"، وقد تحدث "شارل فيرو" عن هذا الموضوع بقوله: " تأمر قويدر بن نعيم البوزيدي مع بن قانة بوعزيز لقتل فرحات بن السعيد، حيث اتصل قويدر بن نعيم بهذا الأخير ليبلغه بمرض صديقه الشيخ عمار الشنيتي، وعند مرور فرحات بن السعيد بقبيلة قويدر طلب منه أحد أعيانها النزول وقراءة رسالة أرسلها الحاج أحمد باي، فلبى فرحات بن السعيد طلبه، وبمجرد شروعه في قراءة نص الرسالة حتى فوجئ ببطعنة خنجر بين كنفه أردته قبيل، فاستحوذ قويدر بن نعيم على سيف وختم فرحات بن السعيد وقام بإرسالهم إلى بن قانة، ينظر: محمد خير الدين، المرجع السابق، ج 1، ص 76.

قام الجنرال "فالي" بتدعيم هذه التجربة باستحداث عساكر الزمالة والفرسان، واختير الفرسان من الطبقة الغنية أي العائلات الكبرى.

واستخدمت فرنسا بعض الجزائريين الذين تعاونوا معها كمرشدين منذ اليوم الأول، فقد أصبح آغا العرب "حمدان بن أمين السكة" بعد احتلال الجزائر مرشد للفرنسيين حيث خرج مع القائد الأعلى متوجها إلى المدية (25)، كما استخدمت فرنسا بعض الجزائريين كوسطاء للتفاوض مع الزعماء مثلما فعلت مع حمدان خوجة، الذي كلفه "دي روفيقو" بالتفاوض مع أحمد باي على الاستسلام (26).

وسعت فرنسا لكسب ود العديد من الزعماء الدينين مقابل امتيازات منحها لهم، في حين انحاز البعض إلى جانب العدو مثلما فعل مصطفى بن إسماعيل الذي حارب الأمير عبد القادر في ناحية جنوب شرق وهران وقد أطلق على جيشه اسم "القومية" (27)، وقد أصبح مصطلح يدل على الخونة عند الجزائريين إلى غاية الثورة التحريرية.

كما استحدثت السلطات الاستعمارية مصالح خاصة للتعامل مع الأهالي أطلقت عليها اسم إدارة الشؤون العربية في 15 أبريل 1837م تحت رئاسة الرائد بليسي (28)، ثم أنشأت إدارة المكاتب العربية بمقتضى مرسوم وزاري في 1 فيفري 1844 وكانت هذه المكاتب بمثابة الوساطة بين السلطات الفرنسية والأهالي، وكانت تهدف لتقديم النصح والبحث عن الوسائل الناجعة للسيطرة وتكريس الاستعمار، وقد عرف دوماس المكاتب العربية بأنها: تهدف لضمان التهدئة في القبائل بصفة دائمة، وكذلك تهيئة السبل للاستيطان الفرنسي وذلك عن طريق توفير الأمن العام، وأن هؤلاء الموظفون يقومون بدراسة البلاد من الاستعداد لمواجهة أي انتفاضة وتحضير قوة عسكرية لهذا الغرض (29).

وقد تعرف الفرنسيون على طبيعة المجتمع الجزائري، حيث يقول المارشال بيجو: "... أن القيادة كانوا يفرضوا أنفسهم على بني وطنهم بسمعتهم وفضائلهم وخصالهم الأخلاقية والحربية، لذلك يجب

(25) حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص 247.

(26) محمد العربي الزبيري: المرجع السابق، ص 33.

(27) تشكلت فرقة القومية أساسا من قبائل الدوير والسعملة التي كانت تقع في سهول مليطة بالجنوب الشرقي لمدينة وهران حيث عقدت تحالف رسمي مع الفرنسيين ممثلا في اتفاقية 1835

:Charles Andrée Julien : Histoire de l'Algérie contemporaine, 2ème édition conquête et colonisation 1827-1871, éditeur : Presse Université de France (P.U.F) Paris 1964, p279

(28) توفيق المدني، كتاب الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 5.

(29) صالح فركوس، إدارة المكاتب والاحتلال الفرنسي للجزائر في ضوء شرق البلاد، 1844-1871، منشورات جامعة باجي مختار، الجزائر، 2006،

علينا أن نستعمل الرجال الذين يتمتعون بنفوذ على القبائل إما بحكم شجاعتهم أو بأهليتهم للحرب أو الإدارة، وإن إبعاد العائلات ذات النفوذ عن الحكم معناه أن نجعل منهم أعداء خطيرين"....⁽³⁰⁾.

وقد تفتن الفرنسيون لأهمية الزوايا وشيوخها في وجدان الشعب الجزائري، فسعوا إلى التقرب من شيوخ الزوايا، وقسموا الزوايا إلى زوايا صالحة وهي التي كانت تتعاون معهم كالزوايا التيجانية، وزوايا معادية لهم عملوا على محاربتها، وكذلك الأمر بالنسبة لزعماء القبائل فعندما سقطت قسنطينة قام الفرنسيون بتعيين زعماء القبائل والشخصيات الكبرى التي ترضى الخضوع للاستعمار، فعين حمودة بن محمد الفكون قائد على قسنطينة وهو ابن شيخ الإسلام، وقد علق المارشال فالي على هذا التعيين بقوله: "... إن واجب الشيخ الفكون المسن يحتم عليه أن يظل في داره وهو مرابط محترم جدا بين الناس، فعائلته كانت تمارس المهام الدينية منذ 800 سنة، إن تأثيره قوي وهادئ، وقد اعتقدت أن مصلحة فرنسا أن نكسب إلينا العرب، وهذه العائلة ستكون واسطة مفيدة لنا في علاقاتنا مع الأهالي"⁽³¹⁾.

وقد كان المارشال فالي يتمتع بدهاء كبير فعندما علم بأن الأمير عبد القادر اتصل بفرحات بن سعيد لبحث سبل مد نفوذه إلى الشرق، رفع تقريراً إلى السلطات الإدارية في الجزائر العاصمة يوم 04 جانفي 1838 يقترح عليهم تعيين فرحات بن سعيد كقائد على قسنطينة مكان الشيخ حمودة بن الفكون، لكونه الأجدر بالحكم بعد أحمد باي، وكذلك دراسة إمكانية جعل بسكرة عاصمة لبايلك جديد، وتنصيب فرحات بن سعيد على رأسه، وشرح لهم الدوافع والأسباب التي حملته على طلب هذه الاقتراحات.

وعليه فإن الحنكة والدهاء التي تميز بهما المارشال فالي، كانت السبب في تغيير مجرى الأمور بالنسبة للثورة الشعبية في الجنوب القسنطيني حيث يقول برنارد (Bernard Augustin) إن العمل الأساسي الذي قام به فالي، هو تنظيم إقليم قسنطينة، فطبق فيها أساليب السياسة الخاصة بمعاملة الأهالي.

تلك السياسة أصبحت تطبق فيما بعد على مستوى القطر الجزائري بأكمله، وقوام هذه السياسة هو إسناد إدارة البلاد إلى الأعيان من الأهالي تحت إشراف القائد الأعلى للإقليم، وذلك أن فرنسا لم تكن تريد أن تحكم البلاد حكما مباشرا فقسمت السلطة ووزعتها على عدة رؤساء، ففي الوقت

(30) بوطالب عبد القادر: الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية من الأمير إلى حرب التحرير، منشورات دحلج، الجزائر، 2009، ص 211.

(31) مختار هوارى: سياسة الإدارة الاستعمارية تجاه العائلات المنتفذة في الجنوب القسنطيني 1837-1870، ماجستير في تاريخ الأوراس الحديث والمعاصر، جامعة باتنة، 2009، ص 43-44.

الذي عين فيه سي محمد الصغير بن علي بن القيدوم بن قانة على دائرة بسكرة، عين الحاج محمد بن قانة على قبائل أولاد نايل وأولاد زكري، وسي أحمد بن الحاج بن علي بن القيدوم بن قانة على البدو الغرابية، وسي علي بن القيدوم بو عزيز بن قانة على البدو الشراقة، وعبد الرحمن بن جلاب⁽³²⁾ على إقليم وادي ريغ.

وبالعودة إلى أوضاع منطقة الزيبان يمكن القول أن الصراع الذي احتدم بين بن قانة وبوعكاز قد مهد لاحتلال المنطقة، فقد كانت كلا العائلتان تتنافسان لكسب ود الفرنسيين مما ساعد على توغل الفرنسيين في المنطقة، وتقتضي سياسة فرنسا التوسع أكثر في الصحراء، ونلمس ذلك من خلال الرسالة التي أرسلها المارشال "سولت" إلى الملك تحت إشراف وزير الحربية قال فيها: إنه يجب أن تؤلف الصحراء الجزائرية صنفاً ثالثاً من الجهات الإدارية، ففي هذه الجهات لا يتواجد معمرين، وان الجيش يجب أن يتواجد لقمع الفوضى وفتح طرق للتجارة، وهي المناطق ستفتح لنا طرق هامة للتجارة، وعلامات تغلبنا عليها تقتضي تعيين قواد من الأهالي في هذه المناطق⁽³³⁾.

احتلال فرنسا للأوراس وبسكرة:

مثلاً رأينا من قبل فبعد أن طلب بوعزيز بن قانة المساعدة من فرنسا لبت هذه الأخيرة طلبه وانطلقت الحملة الفرنسية من قسنطينة في 07 فيفري 1844، بقيادة العقيد "بوتافاكو" (Buttafaco) مكونة من فرقة مشاة بقيادة العقيد "فيدال" والخيالة والمدفعية تحت قيادة الجنرال نُوال (Noël)، ودعمتها قوات من سطيف مقدره ب كتيبتان و 200 حصان بقيادة الجنرال "كيسلاق" والجنرال "ليهين" (Lyhine)، وعند حلولها بمدينة باتنة تمركزت القوات هناك وحولتها إلى مركز عسكري للتموين. ثم بعد ذلك انطلقت باتجاه بسكرة بعد أن أرسل بن قانة 1000 من الإبل لنقل المئونة وفي الطريق اعترضتهم قبيلة أولاد سلطان⁽³⁴⁾، وحدثت مناوشات وبعد هذه الحوادث واصلت الحملة طريقها

(32) بني جلاب الذين حكموا "وادي ريغ" جعلوا من تقرت عاصمة لها من 1414 إلى 1854 م، أما المؤسس الأول لها فهو الحاج سليمان بن رجب الجلابي الذي حكم من 1814 إلى 1431 ويقال حسب الروايات انه من المقربين إلى سيدي محمد بن يحيى، وهذا الأخير هو من الصلحاء قدم من المشرق واستقر في المنطقة وتول شؤونها مدة أربعين سنة، وكان سليمان بن رجب الجلابي مساعد له و صاحب مال ليأتي بعده علي بن سليمان وأحمد بن علي وعمر بن أحمد وسليمان بن أحمد إلى غاية حكم سليمان بن علي الكبير الذي يعد آخر حكام بني جلاب والذي امتد حكمه من 1853 و 1854 حيث سقطت تقرت في عهده بيد الاستعمار الفرنسي وانتهى بذلك حكم بني جلاب، ينظر: شويشي زهية: مجتمع القصور دراسة في الخصائص الاجتماعية والعمرانية والثقافية لقصور تقرت، مذكرة ماجستير، جامعة قسنطينة، 2006، ص 88.

(33) عميرواي أحمدية، رواية سليم، قاصري محمد السعيد، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية 1844-1916، دار الهدى، الجزائر، 2009، ص 38.

(34) إبراهيم مياصي: من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، 65.

في 25 فيفري 1844 في محاولة منها لإحكام السيطرة على المناطق المجاورة، حيث تمكن الدوق "مونتبنوسي" (MONTPENSIER) أخ قائد الحملة من السيطرة على الطرق المؤدية إلى القنطرة وذلك لصعوبة منحدراتها كما أخضع مكماهون (Mac-Mahon) قبيلة "بني معراف" التي تقطن بالسفوح الجبلية المجاورة للأوراس.

وفي 04 مارس 1844 تمكنت قوات العدو من دخول مدينة بسكرة بعد فرار محمد الصغير بالحاج منها، ولكي يستكمل الجيش الفرنسي إخضاع منطقة الزيبان كلها، أكمل الدوق "دومال" المسيرة في بالتوغل أكثر في أعماق الزيبان والقضاء على كل جيوب المقاومة فقصده في 07 مارس 1844 واحة سيدي عقبة⁽³⁵⁾.

وبعد عودته إلى بسكرة وصلته أنباء مفادها أن أولاد سلطان أنصار أحمد باي قد ثاروا من جديد، فتوجه إليهم وأخذ ثورتهم، أما محمد الصغير بن أحمد بن الحاج الذي غادر مدينة بسكرة فقد اعتصم بجبال الأوراس وبالضبط بواحة مشونش، حيث استقبله سكانها بصدر رحب وعاهدوه على الجهاد ضد العدو، أما أحمد باي فقد توجه إلى جبل "أحمر خدو" بالأوراس.

بيبلوغرافيا:

المصادر:

- 1- حمدان خوجة: المرأة، تحقيق محمد العربي الزبيري، سلسلة التراث، الجزائر، 1995.
- 2- محمد الصالح بن العنتري، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.

المراجع:

- 1- إبراهيم مياسي: الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1834-1934، دار هومة للنشر، الجزائر، 2005.
- 2- إبراهيم مياسي: من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999.
- 3- بوطالب عبد القادر: الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية من الأمير إلى حرب التحرير، منشورات دحلح، الجزائر، 2009.

(35) Abdelhamid Zerdoum : Les Biskris et la France, entreprise des arts graphiques et de bureautique de Biskra, 1998. p6

- 4- جميلة معاشي: الاسر المحلية الحاكمة في بالك الشرق من القرن 10 الهجري (16 م) حتى القرن 13 الهجري (19م)، ديوان المطبوعات الجامعية، 2015.
- 5- توفيق المدني: كتاب الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 5 .
- 6- خير الدين محمد: مذكرات الشيخ محمد خير الدين، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ج 1.
- 7- صالح فكوس: إدارة المكاتب والاحتلال الفرنسي للجزائر في ضوء شرق البلاد، 1844 - 1871، منشورات جامعة باجي مختار، الجزائر، 2006.
- 8- علي الرضا الحسيني: زاوية علي بن عمر طولقة، دار الحسيني للطباعة، الجزائر، 2002.
- 9- عميرايي أمحيدة: رواية سليم، قاصري محمد السعيد، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية 1844-1916، دار الهدى، الجزائر، 2009.
- 10- محمد الطاهر التليلي، "فذلكة تاريخية عن منطقة سوف بالجزائر، تحقيق أبو القاسم سعد الله، مجلة العرب، ج 11، ع 37، المملكة العربية السعودية 2002 م.
- 11- محمد مبارك المليي: تاريخ الجزائر في القدم والحديث، ج 1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986 .
- 12- محمد العربي الزبيدي: مذكرات احمد باي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981.
- 13- ناصر الدين سعيدوني: عصر الأمير عبد القادر، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، 2000.
- 14- الشارق عبد الله بن محمد بن علي حشداف: سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول المطبعة التونسية، تونس، 1929.
- 15- قنان جمال، دراسة في المقاومة والاستعمار، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والتوزيع، الجزائر، 1988.

الرسائل الجامعية:

- 1- مختار هواري: سياسة الإدارة الاستعمارية تجاه العائلات المنتفذة في الجنوب القسنطيني 1837-1870، مذكرة ماجستير في تاريخ الاوراس الحديث والمعاصر، جامعة باتنة، 2009.
- 2- هواري مختار: سياسة الإدارة الاستعمارية الفرنسية تجاه العائلات المنتفذة في الجنوب القسنطيني، مذكرة ماجستير، في تاريخ الاوراس الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2009.

3- شويشي زهية: مجتمع القصور دراسة في الخصائص الاجتماعية والعمرانية والثقافية لقصور تقرت، مذكرة ماجستير، جامعة قسنطينة، 2006.

الكتب باللغة الفرنسية:

- 1-Abdelhamid Zerdoum : Les Biskris et la France, entreprise des arts graphiques et de bureautique de Biskra, 1998.
- 2- Edmond Pellissier de Reynaud: Annales Algériennes, Volume 1, Editions Slatkine, paris , 2013.
- 3- Ernest Mercier: Histoire de Constantine, J. Marle et F. Biron, 1903 - Constantine (Algeria).
- 4- Julien Charles Andrée: Histoire de l'Algérie contemporaine, 2ème édition conquête et colonisation 1827-1871, éditeur : Presse Université de France (P.U.F) Paris 1964.
- 5- L. C. FERAUD: Histoire des Sultans de Touggourt et du Sud Algérien , Notes historiques sur la province de Constantine, Les Ben-Djellab, Sultans de Touggourt, Revue Africaine 1878 – 1886 (bulletin de la société historique algérienne) , Impression: A. Jourdan, Alger, 1878-1886.